خبر نسخة نادرة من (شفا) القاضي عياض

بخط الحافظ محمد بن جابر الوادياشي التونسي

ذيلها بترجمة نفيسة للمؤلف

لفضيلة الشَّيخ:

د. عبد الرَّزاق مرزوك

أستاذ التعليم العالي

جامعة القاضي عياض

مراكش المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العزيز الوهاب، والصلاة والسلام علىٰ أكمل من أجاد وأصاب، وعلىٰ آله الطيبين، وصحابته الأماثل الأمجدين، ومن سعىٰ سعيهم إلىٰ يوم الدين.

أما بعد، فإن أجل الفوائد العلمية وأمتعها: ما سيق للباحث سوق العارض الحافل للظامئ المتطلع الآمل، فأخصب بوابله وحلب، وطَعِمَ سَعْدَ النَّوالَ طَعْمَ الشَّهْدِ بماءٍ زُلالٍ.

ومن ذلك قصة الحافظ ابن جابر الوادياشي[1] التونسي[2]؛ التي وصف فيها دواعي جمعه لقطعة نفيسة ترجمَ فيها للقاضي عياض، وأثبتَها في آخر نسخة خطية لكتاب (الشفا)؛ كتبها بخط يده،

قال رحمه الله: (وكنتُ قرأتُه قبل هذا التاريخ[3] بتونس أيضا علىٰ قاضي الجماعة أبي العباس أحمد ابن الغَمَّاز[4]؛ بحق روايته له عن الحافظ أبي الربيع بن سالم[5] إجازة؛ إن

---

[1] – مُسَهَّلة من همزة قبل الشين، نسبة إلى وادي آش بالأندلس؛ مدينة قريبة من غرناطة، واسمها الأعجمي (**Guadix**).

[2] – كنيته: أبو عبد الله، ولقبه: شمس الدين، ويعرف اختصارا بابن جابر، وبصاحب الرحلتين؛ لأنه رحل مرتين إلى المشرق، الأولى سنة ٧٢٠ هـ، والثانية سنة ٧٣٤ هـ، واعتنى في كليهما بالسماع والرواية عن أعلام القرن الثامن في شتى البلاد، وممن لقي بدمشق من مشاهير الأعلام: علم الدين القاسم محمد بن يوسف بن محمد البِرْزالي (٧٣٩ هـ)، والإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (٧٤٨ هـ)، والإمام جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن المِزِّي (٧٤٢ هـ)، ومن تلامذته: لسان الدين محمد بن عبد الله، ابن الخطيب الأندلسي (٧٧٦ هـ)، وعبد الرحمن بن محمد، ولي الدين، ابن خلدون (٨٠٨ هـ)، وأبو القاسم محمد بن أحمد بن جُزَي الكلبي(٧٤١ هـ)، وغيرهم، من كتبه: برنامجه الذي جمع فيه شيوخه ومروياته، وأخذنا منه نص الموضوع، وتوفي بتونس في الطاعون سنة ٧٤٩ هـ، (من مقدمة البرنامج، ص ٩ – ٢٠، بتحقيق محمد محفوظ).

[3] – يقصد عام ٦٩٥ هـ، كما في برنامجه: ص ٢١٥.

[4] – البَلَنْسي الأندلسي، قاضي الجماعة بتونس، توفي سنة ٦٧٣ هـ

[5] – سليمان بن موسى بن سالم الكَلاعي الحِمْيَري، محدث الأندلس وبليغها في عصره، من أهل بلنسية، توفي سنة ٦٣٤ هـ، أشهر كتبه: (الاكتفا في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفا)، طبع بتحقيق مصطفى عبد الواحد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٨ م.

لم يكن سماعا؛ قال: قرأت صدرا[٦] منه علىٰ أبي جعفر أحمد بن حكم، وناولنيه، وحدثني أنه سمعه علىٰ مؤلفه.

وهذا موضع حكاية تناسب هذا المحلَّ:

لَمَّا وصلتُ في قراءته علىٰ شيخنا القاضي من الكتاب لآخر الأبيات التي أولها:

يَا دَارَ خَيْرِ المُرْسَلين وَمَنْ بِهِ ... هَدْيُ الأَنَامِ وَخُصَّ بالآياتِ

وأراها من نظم القاضي أبي الفضل، وكان بآخرها انقضاء المجلس، ودعا الشيخ بعده، وكان يحضر مجلسه أكابر من العلماء؛ منهم الشيخ أبو محمد عبد الله بن هارون شيخنا أيضا، ومجلسه عن يسار الشيخ، فأدار وجهه إليه، وأنشده ارتجالا:

إِنَّ الشِّفَـــاءَ شِفَـــاءٌ للنُّفُـوسِ غَـدَتْ ... تُعْنَى بِآثَارِ مَنْ حِيزَتْ لَهُ الأُثُرُ[٧]

ثم قال: أجِزْنا يا أبا محمد، فلم يمكنه إذ ذاك إجازة، فحفظتها أنا مع من حضر، فلما كان في اليوم التالي، وفرغت من قراءته، ودعا الشيخ على العادة، ناولني الشيخ أبو محمد رقعة تمم فيها على نسيج البيت، تتضمن مدح الكتاب، والثناء على مؤلفه، والدعاء له، والاعتذار عن نظمه:

جَازَى الإِلَهُ العِيَاضِيَّ الإمامَ بِـمَـا ... يَجزي بِهِ كُلَّ مَنْ يُحْيَى بِهِ الأَثَرُ

أَنْوارُ ذِكْرِ الرَّسولِ المُصْطَفَى ائْتَلَقَتْ ... تَجْـلُو الدَّيَاجِيَ مِنْها الأَنْـجُمُ الـزُّهُـرُ

وضبط المحقق في المقدمة نسبة أبي الربيع بكسر الكاف، والأصح فتحها؛ كما قال الفيروزآبادي في القاموس – ك ل ع – : (وكسحاب: موضع بالأندلس، وذو الكَلاع الأكبر: يزيد بن النعمان، والأصغر: سُمَيْفَع بن ناكورِ بن عمرو بن يَعْفُرَ بنِ ذي الكَلاع الأكبر، وهما من أَذْواءِ اليمن.

والتَّكَلُّع: التحالف والتجمُّع، وبه سمي ذو الكلاع الأصغرُ، لأن حِمْيَرَ تكلعوا على يده؛ أي تجمعوا، إلا قبيلتين: هَوازِنَ، وحَرازَ، فإنهما تكلعتا على ذي الكَلاع الأكبرِ) اهـ.

[٦] – في طبعة دار الغرب الثانية – ص ٢١٦ –، بتحقيق الأستاذ محمد محفوظ: (صدر)، وهو خطأ مطبعي ظاهر.

[٧] – جمع أُثْرَة، وهي المَكْرُمَة.

شَمْسُ الضُّحَى أَشْرَقَتْ مِن نورِهِ وَذَكَا مِـنْ عَرْفِ رَوْضِ الرُّبَا لِلنَّاشِقِ الزَّهَرُ
سِلْكٌ بِهِ ازْدانَ جِيدُ العِلْمِ وانتَظَمَتْ فِـيـهِ لجَـامِـعِــهِ الْـيَـاقـوتُ وَالـدُّرَرُ
أَرْوَتْ ظِمَاءَ الْوَرَى غُرُّ الغَمَامِ بِهِ بِـواكِـفٍ لِلْـحَيَـا سَحَّـتْ بِـهِ الـدُّرَرُ
جَديدُهُ لَيْسَ يَبْلَى الذِّكْرُ مِنْهُ عَلى مَـرِّ الجَـدِيدَيْـنِ تُـسْتَجْلَى بِــهِ صُـوَرُ
غَـضٌّ يَـلَـذُّ عَلى الأَسْمَـاعِ يَـمْلَـؤُهَــا مِنْهُ السُّرورُ إِذا تُتْلَى لَهُ سُوَرُ
للهِ دَرُّ ذَوِي الأَلْبَابِ قَدْ عَمَروا الْــ أَعْمارَ مِنْهُ بِما قَدْ بُورِكُ الْعُمُرُ
يُرَدِّدُونَ عَلى الأَسْماعِ ما قَرَؤُوا مِنْهُ فَيا نِعْمَ ما الدُّنْيا بِهِ عَمَرُوا
الشِّـعْـرُ شَـاخَ وَكَلَّ الفِكرُ حِينَ مَـضَى عَصْـرُ الشَّبابِ وَشَابَ الرَّأْسُ والشَّعَرُ
تَـمْضِـي الْحَـياةُ وَأَبْنـاءُ الـزَّمــانِ بِــهِ فِي غَـفْلَـةٍ بِانْصِـرامِ العُمْـرِ مَا شَعَـرُوا
إِنَّـا لَـمِـنْ بَـشَـرٍ جَـلَـتْ ذُنــوبُـهُـمُ وَاللَّـهُ يَـصْفَـحُ عَمَّـا قَـدْ جَنَا الـبَشَـرُ
الـفَضْلُ وَالْـكَرَمُ الجَـمُّ العَـمِيـمُ لَـهُ جـاءَتْ بِــهِ لِـعَـبيدٍ أَذْنَـبُـوا الـبِشَـرُ

فلما فرغ من قراءتها شكره القاضي والحاضرون، ودعَوا له بالثبات، لأنه كان عُمْرُه وقت نظمها سبعةً وثمانين عاما على ما ذكر من مولده.

وقد كنت أنا سمعت على الشيخ أبي محمد هذا من كتاب الشفا دُوَلاً لم أضبطها، وأجازنيه بحق روايته له عن أبي الحسن سهلِ بن مالك الأغرناطي: إجازة عن أبي جعفر بن حكَم، عن المؤلف.

وقد حملتني هده القصيدة على أن جمعت قطعة جيدة تضمنت التعريف بالقاضي عياض وتواليفه، وما قيل فيها، وما وقع لدي مما خاطب به الحافظ السِّلَفي وغيرَه، وما

وجدت له من نظم، أو قيل فيه، وأثبتُّها في آخر الشفا الذي كنت نسختُه ابتغاء ثواب العلم الجسيم)[8].

قلت: فهذه نسخة نادرة جدا من نسخِ كتاب الشفا الخطيةِ الكثيرة، ولا تزال نشراته تتجدد بحسب ما يَـجِدُّ من مقتضيات تحقيقه، بيد أن هذا الذي انتهى به كلام الحافظ ابن جابر مقتضى أنفس وأحرى بالتقديم من جهتين:

الأولى: أن لكتاب الشفا نسخةً مخطوطة بخط الحافظ ابن جابر الوادياشي، وما كان من المخطوطات بخط أهل العلم العارفين أدعى للظفر بنصها الأصح الأصفى، فعسى أن لا تكون قد فُقدت، وأن يكتب الله تعالى سبيلا إلى العثور عليها.

الثانية: أنها مذيلة بترجمة فريدة للقاضي عياض، ومحلها من هذه النسخة الجابرية خفي؛ لا يهتدي إليه إلا باحث حسن القصد، جميل التوكل[9].

وحق ترجمة القاضي عياض هذه، لو عثر عليها، أن تطبع مستقلة، وأن يحتفى بالخصائص التي ذكرها لها مؤلفها الحافظ ابن جابر رحمه الله.

والحمد لله أولا وآخرا.

---

[8] – **برنامج الوادي آشي، ص ٢١٦ – ٢١٨.**

[9] – **وإنما وقعت لي هذه القصة – المشتملة على نبإ هذه النسخة النادرة، وهذه الترجمة الفريدة – على جهة الموافقة؛ دون سابق تقدير، والحمد لله العلي الكبير.**